فى الطريق إلى مكة

اعتنقت المستشرقة البريطانية « لادى ايفيلين كوبولد » الاسلام بعد دراسة عميقة للأديان العالمية ، وأسمت نفسها – زينب – وطوفت بالعالم الاسلامى ، وأدت فريضة الحج ، ثم ألفت كتابا عن حجها واسلامها ، أسمته « فى الطريق الى مكة » أحدث «دويا فى أفق الفكر الغربى . ونقدم هنا ملخصا لمقدمته الرائعة بمناسبة موسم الحج .. »

كثيرا ما سئلت متى وأين اعتنقت الاسلام ؟ ولا أستطيع بالدقة أن أذكر الوقت الذى أشرق على فيه نور الاسلام ، ولكن على ما يظهر لى ، اننى مسلمة منذ فجر حياتى ، وليس هذا بالعجيب ، اذا ما عرفت أن دين الاسلام هو دين الفطرة ، أى أنه الدين الطبيعى ، أو كما قال أحد أعلام الغرب « دين العقل » .

وحتى عندما سألنى قداسة البابا ، وأنا فى زيارة للفاتيكان عن دينى ؟ وعما اذا كنت كاثوليكية ، تريثت فى جوابى ، ثم قلت فجأة ، ودون تدبر سابق ، اننى مسلمة .

وهنا انبلج الصبح فى عينى ، وأدركت أن دراستى للأديان ، وللاسلام بصفة خاصة ، قد أثرت فى وجدانى ، وفى تفكيرى ، دون أن أتنبه لعمق التجربة التى قامت فى روحى ، وفى أصالة الدراسة التى غيرت مجرى حياتى .

وكنت كلما ازددت قراءة ودرسا ، ازددت يقينا بهذا الدين العظيم ، واعتقدت أنه الدين العملى ، الدين القيم ، القدير على حل مشكلات العالم ومعضلاته ، ووسيلة سلام وهناءة للانسانية ، ومنذ ذلك الوقت ، ثبتت عقيدتى فى أن لا اله الا الله الواحد الأحد ، وأن موسى وعيسى ومحمداً عليهم السلام ، وغيرهم أنبياء موحى اليهم وأن الله أرسل الى كل أمة رسولا ، وأننا لم نولد

فى الخطيئة ، وانا لسنا فى حاجة الى وسيلة أو شفيع الى الله ، وأن خلاصنا انما يكون منا وبأعمالنا .

ان كلمة الاسلام ، معناها التسليم لله ، ومعناها أيضا السلام ، والمسالم هو الذى يخضع لأوامر خالق الدنيا ، وهو الذى يكون على سلام ، مع الله ، ومع الناس .

ويرتكز الاسلام على حقيقتين أساسيتين هما : وحدة الله وكون المسلمين جميعا أخوة ، وليس فى هذا الدين طقوس دينية تربك حياة المسلمين ، وهو فى ذاته دين الثقة المطلقة .

سئل النبى صلى الله عليه وسلم مرة :

ما هو الاسلام ؟..

فأجاب :

اطاعة أوامر الله ، والرحمة بالناس .

وسئل مرة أخرى ما هو المسلم ؟ فأجاب :

هو من سلم الناس من يده ، ومن لسانه .

وقال فى موقف آخر :

ان معيار دين الرجل ، معاملته للناس - فالدين المعاملة .

وجاء فى القرآن :

« ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمـــلا صالحـــا ، وقال اننى من المسلمين » « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وجاء فيه أيضا :

« ان الله يأمر بالعدل والاحسان واتياء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون » .

وفيه أيضا :

« ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم

بأحسن ما كانوا يعملون » .

وفى الكثير من آيات القرآن حض على الايمان ، وعمل الصالحات وليس من أدب الاسلام ، أن تكون مؤمنا ثم لا تعمل صالحا .

بقى على أن أذكر شيئا عن مركز الحج فى الاسلام ، فعلى المسلم الذكر أو الانثى أن يحج مرة الى مكة المقدسة .

وللحج فى الاسلام مقام عظيم ، وأثر ضخم فى الدين والدنيا ، انك عند وصولك الى البقاع الطاهرة ، المشرقة بآثار الماضى ، المعطرة بأنفاس الذكريات ، تجد نفسك واحدا من هذا الجمع الهائل المحتشد الذى جاء من كل أطراف الدنيا الى هذه البقعة المباركة المقدسة ، لتخضع لله الواحد الأحد ، ولتبجله متأثرا بالجلال المنبعث من موطن الالهام ، بذكر النبى وما لاقاه من اضطهاد وآلام وتعذيب فى سبيل الدعوة الى عبادة الله الواحد الرحمن الرحيم ، فيحى فى الذاكرة تلك السنين الأولى التى مرت بالاسلام .

والحج انما فرضه الله ليجمع بين المسلمين ، واذا كان هناك ما يوحد بين قوى المسلمين جميعا ، ويحيى موات قلوبهم فهو الحج ، انه ليمنحهم صعيدا طيبا يجتمعون فيه من أقصى البلاد الاسلامية الى أقصاها فى كل سنة ، فيتقابلون ويتعارفون ، ويتبادلون الرأى فى شئونهم ، ويقارنون بين الأحداث التى تغمرهم ، ويوحدوا أنفسهم جميعا ، لعمل الطيبات ، وهنا تتلاشى الفروق بين الجماهير المحتشدة ، فلا يكون لسيد فضل على مسود ، وانما المسلمون أخوة ، يشد بعضهم بعضا .

واذا ما انتهت واجباتهم الدينية ، اجتمع التجار منهم فتباحثوا فى شئونهم الخاصة بهم ، واجتمع المتفقهون فى الدين ، فيتباحثون ، ويتذاكرون ويتفاهمون فيما أشكل عليهم ، وقد يطيب للعلماء جميعا أن يتشاوروا ويتذاكروا .

فالأدباء فى أدبهم ، والاقتصاديون فى اقتصادياتهم ، والسياسيون فى سياستهم ، فهو اذن عصبة أمم ، ومجمع للدين ، والفن ، والعلم ، وغرفة تجارية جامعة ، وقد قال الأستاذ « سنوك هرجرونجى » :

« ان عصبة الجنس البشرى « هيئة الأمم » أسسها الاسلام قبل أن يفكر

فيها أحد ، وشاءت هيئة الأمم ، أن تحتذى حذوها ، وأساسها ما أراده دين محمد عليه السلام ، من مساواةوعدل بين الناس » .

ان العالم الاسلامى ليستطيع أن يحيل مؤتمر الحج الى قاعدة ضخمة لوحدته ووحدة الانسانية كافة فى رباط من الحب الطاهر والاخاء النقى .

الى أكبر مجمع عالمى يتذاكر فيه الناس تحت ظلال الايمان ، وأنوار الروح ، رسالة الانسان على هذا الكوكب ، رسالته كخليفة لله ، لا كحليف أمين للشيطان .

ان الروحانية التى تشع من المؤمنين فى موسم الحج وقد تجردوا من دنياهم وشهواتهم وأهوائهم ، واتجهوا الى ربهم مهللين ومكبرين وداعين ، لهى القوة الوحيدة التى تربط هذا الكون من أن يزول، لأنها حلقة الاتصال التى تربط بين الناس وبين من بيده ملكوت كل شىء

ان دعوات الحجيج يوم عرفات، لهى الشفاعة الصاعدة الى الله ليبقى على هذا الوجود .

لك الخلود يا يوم عرفات .. وجمعنا الله بك وأبقاك . انه سميع مجيب .

* * *

وصية نبوية

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بخصال من الخير .

أوصانى ألا أنظر الى من هو فوقى ، وأنظر الى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم ، وأوصانى أن أصل رحمى ، وان أدبرت ، وأوصانى :ألا أخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانىأنأقول الحق وأن كان مرا ، وأوصانى أن أكثر من قول ، لا حول ولاقوة الا بالله ، فانها كنز من كنوز الجنة » .

رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه .